العنوان: علماء الأندلس في مصر
المصدر: المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات (تونس)
المؤلف الرئيسي: الحريري، محمد عيسى
المجلد/العدد: ع 4
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1986
الشهر: مارس
الصفحات: 43 - 68
رقم MD: 107375
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: HumanIndex
مواضيع: ابن وضاح ، محمد، علماء الأندلس، هجرة العلماء، مصر، التراث الإسلامي، علوم القرآن، علوم الحديث، الفقه الإسلامي، اللغة العربية، النحو، الطب عند العرب، الصيدلة، التاريخ الإسلامي، الحضارة الإسلامية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/107375

علماء الاندلس في مصر

د. محمد عيسى الحريرى

أصبحت بلاد الأندلس – بعد الفتح الاسلامي – بلدا اسلاميا يدور في فلك العالم الاسلامي حضارة وفكرا وثقافة . وهذه الدراسة التي نحن بصددها عن بعض علماء الأندلس في مصر تمثل رؤية حضارية لبعض مراحل الاتصال الفكري بين بلاد الأندلس ومصر ، التي وقفت على مدى تاريخها الاسلامي تغذي القادمين إليها من علماء الأندلس ومفكريها بما لديها من زاد فكري وحضاري . وأصبح هؤلاء العلماء على اختلاف اتجاهاتهم همزة الوصل بين حضارة المشرق الاسلامي المتأصلة ، وحضارة الغرب الاسلامي الجديدة .

والمتتبع لهؤلاء العلماء الوافدين الى مصر يجد نفسه بين أنماط كثيرة من العلماء ساهموا دون توقف أو انقطاع في اثراء الحياة الثقافية الأندلسية ، فمنهم من وفد الى مصر وهو في طريقه الى الحج ، ومنهم من جاء الى مصر بهدف تلقي العلم ، ومنهم من استقر بها وعاش فيها وتوفي ودفن في ثراها ، وأصبح جهده الفكري والعلمي يقع ضمن تراث مصر الثقافي الخالد .

وسوف نتابع رصد تحرياتنا التاريخية عن هؤلاء العلماء من خلال نشاطهم العلمي الذى تفوق فيه كل واحد منهم ، سواء في العلوم الدينية ، أم في غيرها من بعض المواد العلمية ، كما نهتم في أثناء عرضنا لهذه العلوم والمواد بالوضع الاجتماعي والمكانة العلمية التي وصل اليها بعض هؤلاء العلماء الأندلسيين في المجتمع المصرى ، وفى الميدان الأندلسي .

أولا : العلوم الدينية :

1 – علوم القرآن :

ارتبطت بلاد الأندلس بمصر ارتباطا وثيقا في مجال الدراسات القرآنية ، باعتبار أن مصر أول بلدان العالم الاسلامي المباشرة ثقافيا لبلاد الأندلس ، حيث إن بلاد المغرب كانت تعتمد هي الأخرى ثقافيا على مصر والمشرق ، ومن ثم فضل علماء الأندلس الاتصال بمصر مباشرة ، ودون وساطة ثقافية ، فبدأ العلماء الأندلسيون بالاتصال الشخصي المباشر بينهم وبين أقرانهم المصريين في مراكز الثقافة الذائعة الصيت في مصر ، في الفسطاط ومصر والقاهرة والاسكندرية ودمياط ، والذي يلفت النظر أن علماء الأندلس ركزوا في دراستهم القرآنية في مصر على علم القراءات . ولا أدل على ذلك من هذا الحشد الهائل من العلماء الأندلسيين الذين وفدوا الى مصر ، وأسسوا هناك في الأندلس ، مدرسة القراءات الأندلسية معتمدة في بنائها العلمي على خبرات العلماء المصريين .

ومن أوائل علماء القراءات الأندلسيين الذين زاروا مصر العالم الأندلسي محمد بن عبد الله القرطبي ، الذي كان عالما بالقرآن ، بصيرا بالعربية . وقد تتلمذ هذا العالم الأندلسي على ورش تلميذ نافع ، وأخذ عنه القراءة ونقلها الى الأندلس (1) .

وكانت قراءة نافع – أستاذ ورش – معروفة قبل ذلك هناك في الأندلس ، نقلها الى الأندلس الغاز بن قيس (ت 199 هـ) بعد أن أخذها عن

---

1 – ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، ت : ج . براجستراسرط 1932 ، جـ 2 ، ص 189 ، السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : ، ت : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط أولى 1964 ، جـ 1 ، ص 151 (وورش هو عثمان بن سعيد المصري ، أصله قبطي مولى آل الزبير بن العوام ، ولد سنة خمس عشرة ومائة ، وأخذ القراة عن نافع ، وهو الذي لقبه بورش لشدة بياضه ، والى ورش انتهت رياسة القراء بالديار المصرية في زمانه ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ت : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط : 1967 ، جـ 1 ، ص 485 ، د . سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ط ثانية ، 1970 ، ص 288 .

نافع مباشرة في المدينة (1) ومضى علماء الأندلس بعد ذلك – خلال القرن الثالث الهجري في الاتصال بالقراءات القرآنية في مصر ، فزار مصر محمد بن وضاح بن بديع (ت 286 هـ) ، الذي قام بدراسة قراءة ورش ، ومعاودة نقلها من مصر الى الأندلس ، وقد حرص الأندلسيون عندما نقلوا قراءة ورش في هذه المرة عن محمد بن وضاح ، على تدوينها في بلادهم . والمعروف أن محمد بن وضاح تلقى قراءة ورش عن عبد الصمد ابن عبد الرحمن تلميذ ورش (2) .

ولم تتوقف مهمة محمد بن وضاح في نقل خبرة العلماء المصريين عند هذا الحد ، وانما حمل الى الأندلس أيضاً – عن أستاذه عبد الصمد – أول احصائية ظهرت في بلاد الأندلس ، عن عدد القرآن المدني الأول (3) . وهو عدد آيات القرآن طبقا للمرة الأولى التي عدها فيها القارئان المدنيان : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح (4) . وقد نالت قراءة محمد ابن وضاح شهرة واسعة في بلاد الأندلس ، حيث تخلى الناس عن الرواية القديمة التي رواها الغاز بن قيس هناك في الأندلس عن نافع ، واعتمدوا على رواية ابن وضاح (5) . وهذا يشير بوضوح الى تاثير المدرسة المصرية في علم القراءات على الثقافة الدينية الأندلسية في ذلك الوقت .

ولذلك تتابع وصول علماء الأندلس من القراء الى مصر خلال نفس القرن لتحصيل مزيد من الدراسات القرآنية ، فيصل الى مصر عالم أندلسي

---

1 – د . عبد الله خورشيد البري : القرآن وعلومه في مصر ، ط دار المعارف 1970 ، ص 234 .

2 – ابن الجزرى : غاية النهاية ، حـ 2 ، ص 275 (ويروي ابن الفرضى أن اسمه محمد بن وضاح ابن بزيغ بضم الياء وغين بعد الياء ساكنة ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الثاني ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966 ، ص 15) .

3 – ابن الجزري : غاية النهاية ، حـ 2 ، ص 275 .

4 – د . عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه في مصر ، ص 233 .

5 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، ت : د . محمد الأحمدي أبو النور ، حـ 1 ، دار التراث ، 1974 ، حـ 2 ، ص 180 .

آخر هو ابراهيم بن محمد بن باز المعروف بأبي اسحاق بن القزاز القرطبي (ت 274 هـ) (1) وتتلمذ القزاز على عبد الصمد نفس أستاذ ابن وضاح (2) .

ولم ينتصف القرن الثالث الهجرى حتى جاء الى مصر قارىء أندلسي آخر هو أبو القاسم مطرف بن عبد الرحمن بن الفرج ، الذي تتلمذ على عبد الرحمن بن داود بن أبي طيبة ، ومواس بن سهل ، وسمع الحروف من يونس بن عبد الأعلى . وبلغ مطرف حدا كبيرا من إجادة قراءة ورش حتى أن عمر الداني — الذي اشتهرت العلوم القرآنية بالتلاوات والمطابقات على النص القرآني على يديه في الأندلس في بداية القرن الخامس الهجرى — وصف مطرف بأنه من أهل الضبط والاتقان والمعرفة بقراءة نافع برواية ورش ، وكان له كتاب حسن في (الأداء) (3) .

وفي نهاية القرن الثالث الهجرى ، وصل الى مصر المقرىء الأندلسي زكريا بن يحيى . وقام زكريا بعرض قراءته على كبار أساتذة مدرسة ورش ، مثل مواس بن سهل ، وحبيب بن اسحاق ، وبكر بن سهل وأصبح ابن يحيى خير من يمثل هذه المدرسة في بلاد الأندلس (4) .

وشهد القرن الرابع الهجري عددا من القراء الأندلسيين البارزين في مصر ، واصلوا جهودهم لنقل القراءات القرآنية ، وخاصة قراءة ورش الى الأندلس ، منهم المقرىء عبد الكبير بن محمد الجزري الأندلسي (ت 360 هـ) ، الذي سمع من أبي غانم المظفر بن أحمد ، أحد أساتذة مدرسة ورش ، وغيره من كبار القراء المصريين وحين عاد عبد الكبير الى الأندلس ، تصدر للاقراء بقرطبة بجامع الزهراء حيث ظل يقرىء الى أن توفي (5) .

ومن الذين شهدتهم مصر — في النصف الثاني من القرن الرابع — من علماء الأندلس الذين اهتموا بالقرآن وعلومه محمد بن مفرج بن عبد الله

1 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 260 ، 261 .
2 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 261 .
3 — ابن الجزري : غاية النهاية ، حـ 2 ، ص 300 .
4 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 294 ، 295 .
5 — الجزري : غاية النهاية ، حـ 1 ، ص 400 .

ابن مفرج المعافري (ت 371 هـ) جاء محمد من قرطبة ، وسمع في مصر من عبد الملك بن محمد بن بحر بن شاذان الجلاب، ولقي بها أبا جعفر بن النحاس ، وقد روى محمد بن مفرج في الأندلس تأليف أبي جعفر النحاس في إعراب القرآن ، وفي المعاني ، والناسخ والمنسوخ ، وكان المعافري أول من أدخل هذه الكتب الى الأندلس (1) .

وكانت الأندلس قد ارتبطت بمصر ارتباطا وثيقا في مجال علوم القرآن حتى أن المستنصر بالله (350 — 366 هـ) ، أرسل الى مصر في طلب مقرىء يقرىء الناس بالأندلس ، فقدم إليه من مصر في ذلك الوقت أبو الحسن التميمي الأنطاكي (ت 377 هـ) . وأصبح هذا المقرىء المصري في الأندلس شيخها وسندها (2) .

ولم يتوقف وصول القراء الأندلسيين الى مصر ، ففي منتصف القرن الخامس ، كان في مصر اسماعيل بن خلف بن سعد بن عمران الأندلسي (ت 455 هـ) ، وكان كما يقول السيوطي : « مصنف العنوان في القراءات » (3) .

وفي القرن السادس الهجري كان في الاسكندرية اليسع بن حزم أبو يحيى الغافقي الأندلسي الجياني (ت 575 هـ) ، سكن هذا المقرىء الأندلسي الاسكندرية ، وأقرأ بها ، ثم رحل عنها الى مصر فأكرمه الناصر صلاح الدين الأيوبي (564 — 589 هـ) حيث كان فقيرا مقرئا حافظا (4)

---

1 — ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة جـ 1 ، 1966 ، القسم الثاني ، ص 81 ، 82 ، (قرطبة : قاعدة الأندلس وأم مدائنها ، وهي في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وهي في سفح جبل يطل عليها يسمى جبل العروس ، الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ت : الا في بروفنسال ، ط القاهرة 1937 ، 153 . (أبو جعفر النحاس هو أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادي المصري النحوي ، مات في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، أخذ عن الأخفش ، وروى الحديث عن النسائي ، وله مؤلفات كثيرة منها : تفسير القرآن ، والناسخ والمنسوخ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ 1 ، ص 531) .

2 — د . عبد الله خورشيد : القرآن وعلومه في مصر ، ص 235 .

3 — السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ 1 ، ص 494 .

4 — المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 246 ، جـ 2 ، ص 3 — 23 .

وفي نفس الفترة أيضا والى نهاية هذا القرن نسمع في مصر عن عالم الأندلسي القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الامام الرعيني الشاطبي ، الذى كان مقرئا ضريرا ، ارتحل من الاندلس للحج فسمع من السلفي ، واستوطن مصر ، واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة من سائر نواحي مصر ، فقد كان علامة منقطع النظير ، رأسا في القراءات ، حافظا للحديث بصيرا بالعربية ، قرأ عليه أبو الحسن السخاوي ، والكمال الضرير ، وآخر من روى عنه الشاطبية — مؤلف في القراءات منسوب الى الشاطبي — أبو محمد عبد الله بن عبد الوارث الأنصاري المعروف بابن فار اللبن (1) .

وفي القرن السابع الهجرى ، أصبحت الشاطبية وشروحها من المهام الرئيسية لعلماء القراءات ، وخاصة الأندلسيين منهم ، فقد شرحها أحمد ابن علي بن محمد بن سكن المعروف بأبي العباس الأندلسي (ت 640 هـ) ، الذي كانت اقامته الدائمة في مدينة الفيوم ، وكان أحد الحذاق في علم القرآءات كما يروي السيوطي والمقري (2) .

---

1 — السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 496 ، 497 ، (كان الحافظ السلفي — وهو أشهر من تلقى عنه الامام الرعيني الشاطبي — صاحب مدرسة كبيرة بالاسكندرية أنشأها له أبو الحسن علي بن السلار سنة (546 هـ) بعد أن استولى على الوزارة في الدولة الفاطمية سنة (544 هـ) ، وسميت المدرسة أول الأمر باسم المدرسة العادلية ، نسبة إلى العادل بن سلار منشئها ، ولكن المدرسة عرفت بعد قليل باسم مدرسها السلفي ، وقامت هذه المدرسة بتدريس الفقه والتفسير والحديث وبعض العلوم الأخرى . وكانت مدرسة السلفى هي المدرسة الشافعية الوحيدة في الاسكندرية في ذلك الوقت . انظر في ذلك ابن أيبك الداوداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ت : د . صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961 م ، حـ 6 ، ص 553 ، العيني : عقد الجمان ، مخطوط ميكروفيلم بمعهد المحفوظات العربية ، رقم 334 تاريخ ، حـ 12 ، ابن كثير : البداية والنهاية ط أولى 1966 ، حـ 12 ، ص 231 ، 307 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ط القاهرة 1949 ، حـ 3 ، ص 93) .

2 — السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 501 ، المقري : نفح الطيب ، ت : د . احسان عباس ، حـ 1 . دار صادر 1968 ، حـ 2 ، ص 137 ، (كانت الفيوم حينذاك تزخر بعدد من المدارس التي أنشئت في مرحلة مبكرة من عصر صلاح الدين الأيوبي ، وكانت هذه المدارس ذات اتجاهات عملية متميزة ، فمن بينها مدرستان للشافعية وهما المدرسة التقوية أنشأها تقي الدين عمر بن شاهنشاه والمدرسة الحسامية ، كما كانت هناك مدرسة أخرى للمالكية أنشأها تقي الدين أيضا ، انظر في ذلك المقريزي : الخطط ، حـ 1 دار الشعب ، حـ 2 ، ص 266 النابلسي : تاريخ الفيوم وبلاده ، ط القاهرة 1898 ، ص 19 ، 60 ، 177 ابن حجر : أنباء الغمر ، ت : د . حسن حبشي ، ط القاهرة 1969 ، حـ 1 ، ص 51 .

وينبغي هنا أن نقف أمام ظاهرة نلفت النظر إليها وهي أن مدرسة القراءات الأندلسية ظلت حتى نهاية القرن الخامس الهجري تجمع محصولها العلمي عن طريق علمائها الوافدين الى مصر ، والذين اتصلوا بالعلماء المصريين اتصالا مباشرا ، وتأثروا بهم ، وبهذا اتضح الأثر المشرقي عامة والمصرى بصفة خاصة في هذا اللون من الدراسات القرآنية ، ولا شك أن ذلك كان له أثره الكبير في دعم اوتاد الاسلام في بلاد الأندلس ، حيث ظهر هؤلاء العلماء — الذين تتلمذوا في مصر — في بلاد الأندلس كطبقة علمية متميزة على أقرانهم الذين لم يتصلوا بهذه البيئات العلمية المشرقية .

ومن مطلع القرن السادس الهجري تغير وجه هذه الظاهرة ، على النحو الذى رصدناه قبل ذلك ، فرأينا كثيرا من علماء الأندلس من القراء ، يتسابقون الى الاستقرار في مصر ، والقاء ما لديهم من علوم ومعارف في المدرسة المصرية ، ولا شك أن ذلك ارتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع السياسية للمسلمين في بلاد الأندلس التي كانت تعاني اذ ذاك من ضغوط قوى الاسترداد المسيحي لها .

2 — علم الحديث والفقـه :

تركزت جهود علماء الأندلس منذ زمن مبكر حول دراسة الحديث باعتباره الأصل الثاني من أصول التشريع الاسلامي ، وكان عيسى بن دينار (ت 210 هـ) من أوائل المحدثين الفقهاء الذين وفدوا الى مصر وسمعوا من عيسى بن القاسم ، وابن وهب ، وكان محمد بن وضاح يقول عنه : « هو الذى علم أهل الأندلس الفقه » ، وكان بعد عودته من الأندلس لا يتقدمه أحد من علماء قرطبة فى الفتيا (1) .

وابن الفرضي في مؤلفه عن تاريخ العلماء والرواة بالأندلس يقرر ان علم الحديث وعلم أصول الفقه قد دخلا الأندلس متلازمين على يد

---

1 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 2 ، ص 64 ، 65 ، د . سيدة فجر الاسلام ، ص 389 .

كل من محمد بن وضاح (ت 287 هـ) ، وبقي بن مخلد (ت 276 هـ) (1) لأنه بفضل هذين العالمين ، أصبحت الأندلس دار حديث واسناد بعد أن كان الغالب عليها حفظ رأي مالك وأصحابه . أما محمد بن وضاح فقد سمع الحديث من مائة وخمسة وسبعين رجلا من بينهم عدد كبير من علماء الحديث من المصريين ، وكذا بقي بن مخلد ، فإن عدد شيوخه بلغ المائتين، من بينهم مصريون أيضا ، كما أدخل بقي الى الأندلس كتاب الفقه لمحمد ابن ادريس الشافعي (2) رغم ما لقيه هذا اللون من الفقه من مقاومة كبيرة ، وذلك بسبب تمسك فقهاء الأندلس بموطأ مالك الذي رتبت فيه الأحاديث بحسب أبواب الفقه (3) .

ومنذ القرن الرابع الهجري ، بدأ علماء الحديث والفقه من الأندلسيين ينشطون أكثر من ذي قبل في الاتصال بأقرانهم المصريين ، وكان ثابت ابن حزم (ت 314 هـ) في طليعة علماء القرن الرابع من الأندلسيين القادمين الى مصر سمع في مصر من البزار والنسائي (4) وكان عالما بصيرا بالحديث والفقه ، ألف في الحديث كتاب « الدلائل في شرح ما أغفل أبو عبيدة وابن قتيبة من غريب الحديث » . وقد كان هذا المحدث الجليل مرموقا ، وموضع تقدير كثير من العلماء ، قال عنه أبو علي التالي : « ما أعلم أنه وضع بالأندلس مثل كتاب الدلائل . وقال ابن الفرضي : « ولو قال ابو علي ما وضع بالمشرق مثله ما أبعد » (5) .

---

1 — ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الأول ، ص 92 ، القسم الثاني ص 15 .
2 — ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الأول ، ص 92 .
3 — د . أحمد بدر : الأندلس وحضارتها ، ط ثانية 1972 ، ص 178 .
4 — د . أحمد بدر : الأندلس وحضارتها ، القسم الأول ، ص 100 .
5 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ 1 ، ص 319 ، 320 .

ومن شذونة بالأندلس جاء الى مصر عبد الله أبو محمد الأصيلي (ت 392 هـ) ، فلقي بها أبا الطاهر البغدادي ، وابن شعبان والنيسابوري ، وغيرهم ، وبعد تجوال بالمشرق ومصر عاد الى الأندلس حيث انتهت اليه هناك رئاسة المالكية ، وألف كتابا على الموطأ سماه « الدليل » ، وانتشر له هناك أيضا كتاب في نوادر الحديث في خمسة أجزاء (1) ، ويذكر ابن الفرضي انه ألف كتابا بعنوان « الدلائل على أمهات المسائل » جمع فيه وجوه الخلاف بين مالك والشافعي وأبي حنيفة (2) ، ويبدو هنا التأثير المصري واضحا في ظهور طلائع الفقه المقارن فى بلاد الأندلس ، وهي بيئة تعول كثيرا على المذهب المالكي .

وقبل ان ينتهي القرن الرابع الهجري ، وصل الى مصر سهلون بن محمد المعروف بابن الدباغ (ت 393 هـ) ، وقد سمع سهلون من حمزة بن محمد الكناني ، والحسن بن رشيق ، وأبي محمد بن الورد ، وأبي السكن — وكان ذلك في العصر الفاطمي — ومن المؤلفات التي اشتغل ابن الدباغ بتخريجها « مسند حديث مالك » ، « سند حديث شعبة » (3) ، وواضح من هذه المؤلفات الجديدة عند الأندلسيين أنهم استفادوا كثيرا من خبرة علماء الحديث و الفقه المصريين ، وأن خبراتهم التي اكتسبوها في مجال علم الحديث بالذات ، جعلتهم يتجهون نحو التأليف في غريب الحديث ونادره ، وتخريج المسانيد المعروفة .

---

1 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 433 ، 434 .
2 — ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، القسم الأول ، ص 249 .
3 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 355 .

ومن محدثي القرن الخامس الذين وفدوا الى مصر أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي الأندلسي (ت 488 هـ) وهو صاحب كتاب « الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم » (1) .

ومن أثرياء أشبيلية وذوي الحسب فيها الذين رحلوا الى مصر في القرن السادس الهجري لدراسة الحديث ، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر الأشبيلي (ت 512 هـ) زار الاسكندرية وسمع بها من علماء وقته ، وسمع في مصر عن أبي الحسن الخلي ، وأحمد بن يحيى بن الجارود ، وكان الحسن كما وصفه ابن فرحون ، عالي الرواية مهتما بالضبط ، وحفظ أسماء الرجال (2) .

وفي أوائل نفس القرن ايضا كان في مصر أبو علي الصدفي المعروف بابن سكرة السرقسطي (ت 514 هـ) (3) ؛ وهو من كبار المحدثين الأندلسيين الذين تلقوا كثيرا من محصولهم العلمي في مصر . ويروي ابن فرحون أنه كان امام عصره في علم الحديث ، وآخر ائمته في الأندلس ، سمع الصدفي بمصر ، من أبي الحسن الخلعي وأحمد بن يحيى بن الجارود ، وغيرهما ومن الشيخ أبي بكر الطرطوشي وعندما عاد أبو علي الى الأندلس ، نال شهرة واسعة في مرسية حيث قلد هناك منصب القضاء بطلب من أهلها ، وكانت مدرسة مرسية هي مقره الذي لقن فيها علمه لكثير من علماء الأندلس فأجاز لأبي القاسم ابن بشكوال وغيره (4) .

---

1 — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ 2 ، ص 282 ، 284 .
2 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ 1 ، ص 329 ، (أشبيلية : مدينة جبلية من مدن الأندلس ، بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام ، وهي على النهر الكبير وهو في غربيها الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص 18 . .
3 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ 1 ، ص 330 ، 332 .
4 — المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 330 — 332 .

ومن رجال الحديث الأندلسيين الذين استفادوا من مصر كثيرا – في نفس الفترة – أبو بكر بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي (ت 543 هـ) . لقي ابن عربي بمصر والاسكندرية جماعة من كبار المحدثين المصريين ، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم ثم عاد الى الأندلس بعلم كثير لم يدخله إليها أحد قبله ممن كانت له رحلة الى المشرق (1) .

وفي أواخر القرن السادس الهجري لمع في مصر نجم عالم اندلسي مشهور هو الحافظ أبو الخطاب بن دحية الذي جاء الى مصر في أيام الأيوبيين ، كما يروي المقري ، « فرفعوا شأنه وقربوا له مكانه ، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولي الضبط والاتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ، فأعاد (أبو الخطاب) المتون المحولة ، وعرف عن تغييرها ، يم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية » (2) وهذا الحادث تكشف عن العلاقة الطيبة بين البلاط الأيوبي ، وبين علماء الأندلس ، حيث كانت تعقد مثل هذه الندوات العلمية ، ويكون علماء الأندلس الأفذاذ من بين أعضاء هذه الندوات .

وبعد جولة في المشرق والمغرب عاد ابن دحية ليستقر في مصر ، فجعله العادل (ت 615 هـ) أستاد لولده الكامل الأيوبي ، وأسكنه الملك العادل القاهرة ، وأقبل عليه الكامل بعد ذلك اقبالا عظيما ، وكان مشغوفا بسماع الحديث النبوي ، فبنى لأستاذه ابن دحية مدرسة الحديث الكاملية

1 – ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 4 ، ص 296 ، 297 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 28 .
2 – ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 2 ، ص 100 .

بالقاهرة في الموضع المعروف ببين القصرين (1) . ويروي أن الكامل كان يعظم ابن دحية ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، « حتى انه كان يسوى له المداس حين يقوم » (2) .

ويأتي القرن السابع الهجري فيزداد إقبال علماء الحديث والفقه من الأندلسيين على مصر ، ففي مطلع هذا القرن نصادف أبا عمر ابن عات النفزي (ت 609 هـ) والذي زار مصر ضمن رحلته الى المشرق لتلقي العلم ، فلقى بالاسكندرية ، أبا الطاهر السلفي وقاسم بن العريف ، وغيرهما من علماء مصر (3) . قال ابن فرحون « وكان من أكابر المحدثين ، وجلة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة ، يسرد الأسانيد والمتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شيء منها ، ثقة عدلا مأمونا مرضيا ، متوسط الطبقة في حفظ فروع الفقه ، ومعروف المسائل » (4) . وله مؤلفات تضمنت مروياته وآرائه ، منها « النزهة في التعريف بشيوخ الوجهة » ، و « ريحانة التنفيس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس » (5) .

وبعد ابن عات قدم الى مصر عبد الله بن الحسين المعروف بالعبدري(622هـ) تفقه في الاسكندرية على أبي القاسم مخلوف بن علي المعروف بابن جارة ، وسمع عليه ، وعلى الامام أبي الطاهر اسماعيل بن مكي بن عوف ، وأبي

---

1 – المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 102 ، 104 ، (وهي ثاني دار أقيمت لتدريس الحديث على وجه الأرض كما يقول السيوطي ، والأولى بناها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بدمشق والثانية بناها الملك الكامل في القاهرة وكملت عمارتها في سنة (621 هـ) وجعل الملك الكامل شيخها أبا الخطاب عمر بن دحية ، انظر ، السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 2 ، ص 262) .

2 – المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 104 .

3 – المصدر السابق ، حـ 2 ، ص 601 ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 231 .

4 –المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 32 2 .

5 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 231 ، 232 .

الطيب عبد المنعم بن يحيى الحميري وسمع من الحافظ السلفي، والعبدري من الأندلسيين الذين استقروا في مصر ، وأنشأ مدرسة ورباطا بالقرب من داره ، بموضع كان يعرف في القاهرة « بسويقة الصاحب » ، وأوقف لهما مرتبات خاصة بهما ، وله كتاب صنفه في الفقه على المذهب المالكي ، أسماه البصائر » (1) .

ثم نسمع بعد ذلك بمصر والاسكندرية عن أندلسي آخر ، هو أبو العباس الأنصاري (ت 626 هـ) ، وقد استوطن هذا العالم الاسكندرية ، ودرس بها ، حتى أصبح أحد الأئمة المشهورين والعلماء المعروفين في عصرهم في علم الحديث والفقه والعربية له شرح على « صحيح مسلم » سماه « المفهم » ، واختصر صحيحي البخاري ومسلم (2) .

ومن شيوخ المالكية الأندلسيين الذين استقروا بمصر، وطال ذكرهم فيها، الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق المعروف بالجمال (ت 632 هـ) . سمع الحديث بمصر من والده ، وبالاسكندرية من أبي الطاهر اسماعيل ابن عوف ، وانتفع كثير من الناس بعلمه ، حيث تصدر للتدريس والافتاء بمصر ، وتخرج على يديه كثير من طلاب المذهب المالكي (3) . يقول

---

1 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 450 ، 451 ، (كانت للامام أبي الطاهر إبن عوف مدرسة على غرار مدرسة أستاذه الطرطوشي – الذي كانت خالته زوجة للطرطوشي – أقامها لابن عوف في الاسكندرية (ولخشى) ، وزير الخليفة الحافظ لاين الله سنة (532 هـ) . واستمرت هذه المدرسة قائمة حتى نهاية الدولة الفاطمية التي تولت انشاءها وتمويلها ، انظر ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ط القاهرة 1350 ، حـ 4 ، ص 268 ، السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 213 ، د . الشيال : اعلام الاسكندرية ، ط القاهرة 1965 ، ص 113 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ، ط القاهرة 1961 ، ص 63 ، 64) .

2 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 240 ، 241 ، (يذكر المقري : أنه توفي سنة (656 هـ) . انظر المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 615 .

3 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 233 ، 234 .

عنه ابن فرحون : « كان شيخ المالكية في وقته ، وعليه مدار الفتوى في الفقه بالديار المصرية ، وكان عالما بأصول الدين وأصول الفقه ، والخلاف وغير ذلك » (4) .

والذي نلاحظه أن علماء الحديث في ذلك الوقت من الأندلسيين اهتموا كثيرا باختصار كتب الصحاح ، وهذه الظاهرة تعني تراجع الجهود المبذولة في هذا الفرع من العلوم الدينية . ويبدو أن المحن التي أصابت العالم الاسلامي في ذلك الوقت نتيجة لضعف الخلافة في المشرق الاسلامي ، وضعف المقاومة الاسلامية في الأندلس ، وانحسار القوة الاسلامية أمام المد العالي لقوى الاسترداد المسيحي ، يبدو أن ذلك كله كان له آثار في خلق جو من الكساد العلمي والفكري .

ورغم هذه الأحوال ظلت الأندلس على صلة علمية بمصر حتى في أيامها الأخيرة في عهد بنى الأحمر – آخر ملوك المسلمين في الأندلس – فمن العلماء الذين قدموا الى مصر في ذلك الوقت عبد الله بن أبي أحمد بن محمود بن منخل بن زيد الغافقي ، الذي كان من أهل غرناطة – عاصمة بني الأحمر – وفي مصر أخذ عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، وعن الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي ، وعز الدين ابن عبد السلام ، وألف كتابا أسماه « بالمنهاج » في ترتيب مسائل أبي عبد الله ابن الحاج (5) ومن هؤلاء العلماء أيضا في نفس الفترة سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني الذي تلقى العلم في مصر على شرف الدين الدمياطي ،

---

4 – المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 334 .

5 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 444 ، 445 ، (وابن عبد السلام هو عز الدين عبد السلام بن عبد العزيز بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي ، شيخ الاسلام ، وسلطان العلماء كما لقب في عصره ، وكان مولده في سنة 577 أو سنة 578 ، وهو استاذ لابن دقيق العيد ، ولشرف الدين الدمياطي أيضا ، السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 2 ، ص 324) .

وأبو الحسن بن مضاء ، وشهاب الدين الابرقوهي ، وأبو الشكر الحميدي ، وأبو بكر بن عبيدة ، وتركز اهتمام هذا العالم في مجال التأليف في الوثائق المرتبطة بالأحكام ، حيث ألف فيها كتابا مفيدا ، كما دون مشيخته ، وبرنامج روايته (1) .

ثانيا : المواد العلمية :

1 — اللغة والأدب والنحو :

رغم كون الفاتحين العرب كانوا قلة بالنسبة لمجموع سكان الجزيرة الأندلسية ، الا أنهم كانوا الحكام ، ولغتهم لغة الادارة ، كما أنها لغة الدين الاسلامي الذي دخلت فيه نسبة كبيرة من السكان ، مما جعل العربية الفصحى تسيطر مع مرور الزمن في جميع مجالات الثقافة والفكر ، وتستلب من اللاتينية الفصحى أهلها ، لذا حرص الأندلسيون على الاتصال بالنتاج المشرقي في علوم اللغة والأدب والنحو ، والذي يلاحظ أن هذه العلوم لم تأت الى الأندلس وحيدة وانما جاءت إليها مرتبطة بعلوم الدين (2) . وهذا الارتباط نجده واضحا عند علماء اللغة الذين وفدوا الى مصر ، سواء من استقر منهم فيها أو عاد الى وطنه بعد انتهاء رحلة التلقي ، فلم تكن مهمتهم تنحصر في علوم الدين فحسب وانما تخطتها الى ألوان أخرى من علوم العربية والأدب والنحو .

ومن هؤلاء العلماء أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن مغلس القيسي الأندلسي (ت 427 هـ) ، الذي رحل الى مصر ، واستوطنها ، وكان من أهل العلم بالعربية مشارا إليه فيها ، قرأ الأدب في مصر على أبي العلاء صاعد ابن الحسن الربعي صاحب كتاب « الفصوص » ، وعلى أبي يعقوب النحيري بمصر . وله أشعار كثيرة بينه وبين أبي الطاهر اسماعيل بن خلف — وهو أندلسي أيضا ، وصاحب كتاب « العنوان » — وهي معارضات في قصائد موجودة في ديوانها (3) .

---

1 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 397 ، 398 .

2 — د . أحمد بدر : الأندلس وحضارتها ، حـ 1 ، ص 180 ، 183 .

3 — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 3 ، ص 193 ، 194 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 132 ، 133 .

وعالم أندلسي آخر هو أبو عمر بن عات النفزى (ت 609 هـ) ، زار مصر ضمن رحلته الى المشرق ، وفي الاسكندرية لقي أبا الطاهر السلفي ، وقاسم بن العريف ، قال عنه ابن فرحون : « كان من أكابر المحدثين وجلة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة » (1) . كما كان أبو العباس الأنصاري الأندلسي (ت 626 هـ) ممن نزل الاسكندرية من العلماء الاندلسيين ، واستوطنها ، وهو من العلماء المعروفين في عصرهم في علم الحديث والفقه والعربية (2) . وكذلك كان أبو الخطاب عمر بن الحسين بن علي بن دحية – الذي سبق الحديث عنه – من أعيان العلماء الأندلسيين العارفين بالنحو واللغة ، وقد استقر هذا العالم بمصر ، وتوفي بالقاهرة ، ودفن في سفح قطم سنة (633 هـ) (3) .

أما علم النحو فقد ازدهر في الأندلس نتيجة لاتصال علمائه الأندلسيين بالمشرق الاسلامي ومصر ، وللجهود المتعاقبة من جانب علمائه الذين لم يكفوا عن البحث والتأليف والاطلاع واكتساب الخبرات المتعددة فيه ، وقدم الأندلس لعالم العربية عددا كبيرا من فحول علماء النحو كابن مالك الذي كان من أوسع علماء العرب شهرة في علم النحو ، ومن بين مؤلفاته الكبيرة (الكافية الشافية) وتقع في ثلاثة آلاف بيت ، والالفية التي هي مختصر للكافية (4) .

وقد كان حرص الأندلسيين في هذا المضمار مدعاة الى أن يتصل بعض علمائهم بأقرانهم من العلماء المصريين ، والمصادر لا تسعفنا بمعلومات عن هؤلاء النحويين الأندلسيين الذين جاءوا الى مصر في الفترات المتقدمة اذ اكتفت هذه المصادر بقولها إنهم رحلوا الى المشرق فقط دون الاشارة الى مصر ، ولكن نعثر عند السيوطي في حسن المحاضرة على محمد بن علي ابن يونس المعروف بالرضي الشاطبي (ت 684 هـ) ويذكر أنه تصدر

1 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 231 ، 232 .
2 – المصدر السابق . حـ 1 ، ص 240 ، 241 .
3 – ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 3 ، ص 448 ، 450 .
4 – المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 232 ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة : د . حسين مؤنس ، ط أولى ، ص 186 ، 187 .

لتعليم النحو بالقاهرة ، وأخذ عنه كثير من الناس في مصر (1) . وبعده جاء الى مصر أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي ، ونحوى عصره ولغويه ومقرئه ، أخذ بمصر عن البهاء النحاس ، وتقدم في النحو في حياة شيوخه (2) ، وأبدى في القاهرة نشاطا علميا عظيما ، حيث خلف شيخه البهاء النحاس في أستاذية النحو ، كما كان شيخ المحدثين في المدرسة المنصورية في القاهرة ، وكان يقرأ القرآن في المسجد أيضا (3) .

وتعكس حياة هذا العالم الجليل الذي كان يميل الى حياة التقشف جانبا من حياة مجتمع العلماء الوافدين الى مصر في هذا العصر ، فقد كان أثير الدين يقول : « يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس : يشترى له بائتة بفلسين يأكل به الخبز ، وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول : الله يرزقك عقلا تعيش به أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف ، واذا اردت من أحد أن يعيرني دراهم لم أجد ذلك (4) .

وأقوال هذا العالم تعكس سهولة الحياة في المجتمع المصرى في هذه الفترة ، كما تشير الى ارتفاع مستوى الخدمة المكتبية المتاحة للعلماء في ذلك الوقت.

2 — الطب والصيدلة :

وفي مجال الطب اعتمد عرب الأندلس في أول أمرهم على قوم من النصارى ، وهؤلاء النصارى كانوا يعولون في معلوماتهم الطبية على

---

1 — السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 533 ، 534 .
2 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 234 ، ليفي بروفنسال وحضارة العرب في الأندلس ترجمة : ذوقان قرقوط ، ص 62 .
3 — المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 536 ، (المدرسة المنصورية أنشأها هي والبيمارستان الملك المنصور قلاوون ، وكان على عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي ، انظر ، السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 2 ، ص 143) .
4 — المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 543 .

كتاب قديم يقال له الأبرشيم ، وتفسيره (الجامع أو المجموع) ، وعندما شرع الأندلسيون بعد ذلك في ممارسة مهنة الطب ، اهتم أكثرهم بقراءة (الكنانيش) ، وهي مجموعات الوصفات الطبية . وكان هدفهم من ذلك الاستفادة السريعة بثمرة هذه الصناعة في خدمة الملوك (1) .

وما أن جاء عصر الخلافة الأندلسية حتى اتجه الأطباء الأندلسيون الى المشرق ومصر اللذين أصبحا مركزا هاما لدراسة العلوم الطبية ، ومن أشهر أطباء الأندلس الذين رحلوا الى مصر ، محمد بن عبدون الجبلي الذى بدأ رحلته إليها سنة (347 هـ) وفي مصر أسند الى هذا الطبيب ادارة وتدبير بيمارستان الفسطاط (2) .

كما وفد الى مصر من أطباء الأندلس يحيى بن اسماعيل البياش ، الذي أصبح في مصر الطبيب الخاص بعلاج صلاح الدين الأيوبي (3) .

وتدعمت بعد ذلك صلات الأطباء المصريين بالأطباء الأندلسيين حتى صرنا نرى الطبيب المصرى نسطاس بن جريج ، يكتب رسالة في البول ، لخالد بن يزيد بن رومان النصراني أحد الأطباء الأندلسيين المشهورين وهذا يعكس لونا من ألوان التعاون العلمي بين الطرفين (4) .

وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري قدم الى مصر ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن البيطار ، وهو من أعظم الأطباء ، وعلماء الصيدلة العرب ، الذين برعوا في العشابة ، وعلم النبات ، وأصبح بمصر بعد قدومه رئيسا على الحكماء ، وسائر العشابين كما يقول المقرى ، واستفاد الملك الكامل بن الملك العادل من تفوقه ، فأدخله في خدمته ، وكان حظيا أيضا عند ولده الصالح (5) . كما ان ابن البيطار أستاذ لابن

---

1 — د . أحمد بدر : الأندلس وحضارتها ، حـ 1 ، ص 176 .
2 — المرجع السابق ، حـ 1 ، ص 193 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 151 ، 152 ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 461 .
3 — المرجع السابق ، ص 457 .
4 — بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 462 ، المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 692 .
5 — المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 692 .

أبي أصيبعة ، صاحب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (1) . وأشهر كتب ابن البيطار ، كتاب « الجامع لمفردات الأغذية والأدوية » جمع فيه أكثر من (2330 مادة) بما ذكره سابقوه من علماء اليونان والعرب عن الأدوية ، وزاد عليها ثلاثمائة لم يشر بها أحد قبله (2) .

وفي نفس الفترة زار مصر أحمد بن محمد بن أبي مفرج المتوفى سنة (637 هـ) ، والذي عرف بالعشاب أو بابن الرومية ، ويذكر ابن فرحون في الديباج المذهب ، أنه كان « أعجوبة الزمان في عصره ، وما قبله وبعده في معرفة علم النبات ، وتمييز العشب وتحليلها وأثبات أعيانها على اختلاف أطوارها بمنابت المشرق والمغرب لا مدافع له في ذلك ولا منازع حجة لا ترد ولا تدفع » (3) . ويبدو ان زيارته لمصر كانت للتعرف على البيئات النباتية والأعشاب الطبية بها ودراستها وتصنيفها .

التاريخ .

تعددت ألوان الكتابة التاريخية عند المؤرخين الأندلسيين ، وهي على تعددها ظلت متأثرة بالروح الشرقية في المنهج والطريقة ، ويلاحظ أن كتابة التاريخ الأندلسي ظلت في يد المصريين حتى القرن الرابع الهجرى حيث أخذ أثر المصريين يضعف ويتضاءل لأن الثقافة الأندلسية في ذلك الوقت أخذت في الازدهار ، وبدأت تعتمد على نفسها وتستقل بشخصيتها عن مصر والمشرق (4) . ويظهر ذلك بوضوح في أوائل المؤرخين الأندلسيين الذين زاروا مصر ، كعبد الملك بن حبيب الالبيرى ، الذى عاش فترة من حياته في مصر ، تتلمذ فيها على علمائها ، وهو صاحب كتاب مبتدأ خلق

1 – بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 479 .
2 – السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 542 ، د . مختار القاضي : أثر المدينة الاسلامية في الحضارة الغربية ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية 1972 ، ص 155 .
3 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 1 ، ص 191 ، 192 .
4 – د . أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، حـ 1 – مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص 337 .

الدنيا ، وقد جاء هذا الكتاب مصريا في روايته ومصادره ، ونتيجة لذلك جعله بعض المؤرخين في عداد الكتب المصرية (1) . وله أيضا كتاب في مغازي الرسول – صلى الله عليه وسلم – وآخر في حروب الاسلام (2) .

وقد زار مصر بعد هذه الفترة المؤرخ الأندلسي أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي ، الأندلسي ، الذي رحل الى مصر سنة (488 هـ) وألف في التاريخ كتابه المشهور « جذوة المقتبس » (3) .

ومن أهم المؤرخين الذين زاروا مصر المؤرخ الأندلسي أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي (ت 525 هـ) (4) . الذي خرج من الأندلس سنة (476 هـ) الى المشرق فزار بلدانه ، واستقر أخيرا في مصر حيث قضى بقية حياته فيها (5) . وفي مصر تعددت مؤلفات الطرطوشي التي كان أهمها على الاطلاق مؤلفه التاريخي المعروف « بسراج الملوك » ، الذي ألفه للمأمون البطائحي – الوزير الفاطمي – وفي هذا السفر العظيم تناول واجبات الملوك ، والفضائل والخلال التي يجب أن يتحلوا بها ، وخصالهم في السلم والحرب (6) . والكتاب في حجم متوسط ، تزيد صفحاته على المئتين قليلا ، ويمثل لونا من ألوان النشاط الفكري التاريخي في هذه الفترة ، حيث لم يذهب المؤرخ في كتابه « مذهب النصح والإرشاد »

---

1 – المرجع السابق ، نفس الصفحة ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس – القسم الأول ، ص 969 – 272 – ابن فرحون : الديباج المذهب ، حـ 2 ، ص 8 – 15 .

2 – المصدر السابق ، حـ 2 ، ص 13 .

3 – ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 4 ، ص 282 ، 284 .

4 – السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 192 ، (والطرطوشي : يضم الطاءين نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس في شمال شرق أسبانيا ، المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 87 ، د . أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب الأندلسي ، ص 349) .

5 – المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 88 .

6 – ابن العماد : شذرات الذهب ، حـ 4 ، ص 62 ، 64 ، السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 192 ، د . أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب الأندلسي ، ص 350 ، (وقد طبع هذا الكتاب في مصر عدة طبعات ، طبعته مطبعة بولاق سنة 1289 هـ ، وفي نفس السنة ظهرت طبعة المطبعة الوطنية بالاسكندرية ، وفي سنة 1306 هـ طبعته المطبعة الخيرية بالقاهرة ، وبعد خمس سنوات ، وفي سنة 1311 هـ طبعته المطبعة الأزهرية بالقاهرة أيضا) .

مباشرة وانما فعل ذلك من خلال روايات تاريخية ، تؤكد المفاهيم التي يعرضها للملوك ، والحكام ومن هنا كانت للكتاب قيمته العلمية التاريخية (1) .

عاش الطرطوشي في الاسكندرية ، وتزوج من سيدة مصرية ذات ثراء هيأت له دارا كبيرة اتخذ الطرطوشي الطابق العلوى منها سكنا له ولزوجته أما طابقها السفلي فجعله مدرسة ، أقبل عليه فيها طلاب العلم ينهلون فيها من علمه في الحديث والفقه ومسائل الخلاف (2) . وكانت مدرسة الطرطوشي ذات ملامح مميزة في ذلك الوقت ، حيث ابتكر طريقة جديدة لتنشيط معلومات طلبته ، فكان يخرج بهم بين الحين والحين في رحلات دراسية الى الخلاء والبساتين خارج مدينة الاسكندرية ، حيث يقيم الطلبة في فرحة ومذاكرة ومداعبة ، وقد أقبل الطلبة على هذا اللون المحبب من التدريس فبلغ عددهم في بعض الأوقات مع الطرطوشي ثلاثمائة وستين دارسا (3) وبلغت هذه المدرسة التي كانت مدرسة أهلية في كل مقوماتها — شهرة كبيرة ، فيذكر العيني في عقد الجمان : ان محمد بن تومرت — مؤسس دعوة الموحدين كان من بين طلبتها الذين أخذوا عن الطرطوشي في مدرسة الاسكندرية (4) .

وكان الطرطوشي قويا في مواجهة أي انحراف لا يتفق وقواعد الشرع ، فيروي في كتابه « سراج الملوك » أنه ذهب الى القاهرة ، وهناك قابل الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه ، وقام بوعظه ، ونصحه بتقوى الله ، وطاعته واقامة العدل بين الناس والرفق بالرعية (5) .

وقد كانت انتقاداته المستمرة لكثير من البدع المحرمة في المجتمع السكندري ، وبعض المخالفات الشرعية في شئون الأموال والمكوس ،

---

1 — الطرطوشي : سراج الملوك ، ط بولاق 1289 هـ ، ص 1 — 208 .

2 — العيني : عقد الجمان ، مخطوط ، مجلد 12 ، سنة 576 هـ ، عنان : تراجم اسلامية ، نشر الخانجي ، 197 ، ص 291 .

3 — ابن فرحون : الديباج المذهب ، 244 — 248 ، د . الشيال : أعلام الاسكندرية ، ص 73 .

4 — العيني : عقد الجمان ، مخطوط ، مجلد 11 ، سنة 514 هـ .

5 — المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 87 ، عنان : تراجم اسلامية ، 197 ، 291 .

مدعاة لأن يغضب عليه القاضي ابن حديد ، قاضي الاسكندرية ، فضلا عن الفتاوى التي لم يتردد الطرطوشي عن اثارتها ، مثل قوله بتحريم الجبن الذي يأتي به الروم الى المدينة ، وتتابعت شكاوى ابن حديد ، وتقاريره السرية السيئة عن الطرطوشي للخليفة الفاطمي بالقاهرة (1) . الأمر الذي دفع الوزير الأفضل شاهنشاه الى أن يرسل في طلب الطرطوشي الى القاهرة ، ولما وصل الشيخ الى القاهرة ومعه خادمه ، أمر الأفضل بتحديد اقامته في مسجد الرصد بالفسطاط ، حتى يبت في شأنه وقرر له راتبا شهريا بضعة دنانير من جزية اليهود (2) .

ظل الطرطوشي في اقامته المحددة عدة أشهر ، حتى ضاقت نفسه وأصابه الملل ، فقال لخادمه : « الى متى نصبر اجمع لي المباح من الارض ، فجمعه وأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : رميته الساعة ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل ، وولى بعده المأمون البطائحي ، فأكرم الشيخ اكراما كثيرا وله ألف الشيخ سراج الملوك (3) .

وفي شوال من سنة (516 هـ) ، وصل الطرطوشي من الاسكندرية بعد أن فرغ من تأليف سراج الملوك لتقديمه للمأمون البطائحي ، الذي أكرمه ، أمر بانزاله في المجلس المهيأ للاخوة ، تقدم — المأمون — برفع أدوية الكتاب ، وأوطئة الحساب ، وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع الى البادهنج ، واستدعي بالفقيه ، فلما شاهده وقف ، ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ، ثم انصرف الفقيه ، الطرطوشي ومعه أخو المأمون الى مكان أعد له ، وحمل إليه ما يحتاج له ، وأمر مشرف الجوالي ، أن يحمل له في كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى

---

1 — المرجع السابق ، ص 191 ، (الخليفة الفاطمي هو الامر بأحكام الله أبو علي المنصور ، د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، ط دار المعارف 1972 ، حـ 1 ، ص 133) .

2 — د . الشيال : أعلام الاسكندرية ، ص 75 .

3 — المقري : نفح الطيب ، حـ 2 ، ص 88 ، انظر السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ص 452 ، مع خلاف في اللفظ ، ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، ص 63 .

أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته ، ويبالغ في كرامته ويقضي شفاعته » (1) .

ويذكر المأمون أن سبب هذه الزيارة ما أثاره الطرطوشي في الأيام الأفضلية حول بعض القضايا المتعلقة بالمواريث (2) . فقد كان القضاة في مصر في العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي الذي يقضي بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها اذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، وحرمان العصبة من المشاركة في الميراث ، وكانت النظم الوضعية المتبعة في الدولة الفاطمية بها خلل هي الأخرى لم يعجب الطرطوشي ، حيث كانت تقضي هذه النظم بأن يأخذ أمناء الحكم – وهم الموظفون القضائيون الذين يقومون بالاشراف على شئون المواريث – ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة (3) .

وكان الطرطوشي يرى في ذلك مخالفة صريحة للشرع ، أي للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ، ألا ترث البنت أكثر من نصف التركة ، كما كان يرى في الأمر الثاني ظلما واغتصابا لحقوق الأيتام ، ومن واجب أولي الأمر المحافظة على أموالهم كاملة دون نقص (4) .

ودار بين الطرطوشي والمأمون البطائحي حوار طويل حول هاتين القضيتين ، وقد قدم المأمون للشيخ اعتذاره عن القضية الأولى ، لأن الخليفة الفاطمي لن يوافق على أي تغيير في محتواها لأن الأمر فيها يتصل بصميم المذهب الشيعي ، وهو المذهب الرسمي للدولة – وقال له : « أنا لا أقدر على أن أرد على الجماعة مذهبهم (يقصد الفاطميين) ، والخليفة لا يرى به وينقضه

---

1 – المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ت : د . محمد حلمي محمد أحمد ، ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية 1973 ، حـ 3 ، ص 88 ، (البادهنج : منفذ للتهوية في البيوت ، الجوالي : يقصد بها الأموال المشروعة ، المصدر السابق هامش نفس الصفحة .

2 – المصدر السابق ، حـ 3 ، ص 88 .

3 – المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، حـ 3 ، ص 88 ، 89 د . الشيال : أعلام الاسكندرية ، ص 78 .

4 – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، حـ 3 ، ص 88 ، 89 ، د . الشيال : أعلام الاسكندرية ص 78 .

على من أمر به ، بل آمر بشفاعة الفقيه أن أرد الجميع على رأي الدولة ، فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله » (1) .

وأصدر المأمون أمرا للقضاة بأن يتبع القضاة في مسائل الميراث مذهب الميت . أما الأمر الثاني ، فقد وافق عليه المأمون ، وأمر « أن يكتب به بتعويض أمناء الحكم عما يقتضون من ربع العشر بتقرير جار لهم كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية » (2) .

وصدر سجل رسمي في آخر ذي القعدة (سنة 516 هـ) ، موقع عليه من الخليفة الآمر الفاطمي ، والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل الى القضاة في كل أنحاء الدولة للعمل به » (3) . وهذا يعكس مدى قوة هذا العالم الأندلسي الفقيه المؤرخ الطرطوشي ، الى الحد الذي تطبق فيه بعض قواعد المذهب السني في دولة شيعية .

وقبل أن يعود الطرطوشي الى مقره في الاسكندرية ، أخذ موافقة المأمون البطائحي على اقامة مسجد على نفقة الدولة على شاطىء الثغر بالاسكندرية وأمر المأمون القاضي ابن حديد « بموافقة الفقيه — الطرطوشي — على موضع يتخذه ، وأن يبالغ في اتقانه وسرعة انجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » (4) .

كما ذكر الطرطوشي للمأمون أن واحات البهنسا ، لا تقام الجمعة فيها لعدم وجود مسجد بها ، فأمر المأمون ببناء جامع بها ، وأقيم فيه خطيب وامام ، وقومة ، ومؤذنون ، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم » (5) .

---

1 — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، حـ 3 ، ص 89 .
2 — المصدر السابق ، حـ 3 ، ص 89 ، (المواريث الحشرية : هي مال من يموت ولا وارث له بقرابة ، أو نكاح ، أو ولاء ، والباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض ولا يستغرق فرضه جميع المال ولا عاصب له ، انظر المصدر السابق ، هامش نفس الصفحة) .
3 — المصدر السابق ، حـ 3 ، ص 90 ، 91 ، د . الشيال : أعلام الاسكندرية ، ص 79 .
4 — المصدر السابق ، حـ 3 ، ص 92 .
5 — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، حـ 3 ، ص 92 .

واذا عرفنا أن واحات البهنسا هذه مدينة بالصعيد الأدنى غربي النيل (1) . فإننا ندرك مدى ما وصل اليه الطرطوشي من شهرة وتأثيره على المستوى الشعبي في مصر .

ومن مؤرخي الأندلس الذين زاروا مصر أيضا ، وكان لهم ذكر بها ، يسع بن عيسى بن حزم (ت 575 هـ) ، وهو من أهل بلنسية ، أقام في المرية ، ومالقة وعاش بمصر منذ سنة (590 هـ) وكانت له علاقة وثيقة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، فقد ألف له كتاب أسماه « المعرب في محاسن أهل المغرب » (2) . ومنهم أبو الخطاب بن دحية (ت 633 هـ) الذي قدم الى الديار المصرية ، وقضى بها بقية حياته ، كما ذكرنا قبل ذلك ، ومن مؤلفاته التاريخية « كتاب التنوير في مولد السراج المنير » (3) .

وقصارى القول فإن هؤلاء العلماء الأندلسيين على اختلاف العلوم والمواد التي درسوها في مصر ، اشتركوا جميعا في ظاهرة واضحة ، وهي أن معظم الذين جاء منهم الى مصر ، حتى نهاية القرن الخامس الهجري جاء الى مصر بهدف تلقي العلم عن المصريين والعودة ثانية الى الأندلس ، حيث تميز بناء الحياة الفكرية الاسلامية في بلاد الأندلس في تلك المرحلة ، بحرص هذه البلاد من العلماء على الاتصال الشخصي المباشر بأقرانهم من علماء مصر والمشرق ، علاوة على أن مصر والمشرق كانا قد وصلا الى مرحلة كبيرة من النضج العلمي والثقافي (4) .

أما معظم العلماء الأندلسيين الذين جاءوا الى مصر بعد ذلك ومنذ القرن السادس الهجري ، فكان هدفهم الاستقرار في مصر ، وعرض ما لديهم من علوم ومعارف في المدارس المصرية — هي خلاصة الفكر الأندلسي الذي حصلته أجيال كثيرة من سابقيهم من العلماء من المشرق

1 — المصدر السابق : هامش نفس الصفحة .

2 — السيوطي : حسن المحاضرة ، حـ 1 ، ص 496 ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص 242 .

3 — المصدر السابق ، حـ 1 ، ص 355 ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ 3 ، ص 448 — 450 .

4 — د . مختار القاضي : أثر المدنية الاسلامية في الحضارة الغربية ص 79 ، 80 .

والغرب ، ويبدو أن ذلك كان تحت وطأة الظروف السياسية السيئة في بلادهم . حيث كانت هذه الفترة ، التي بدأت بسيادة المرابطين على بلاد الأندلس سنة (483 هـ) ، عصر تأخر وانكماش للثقافة الأندلسية (1) . ومن بعدهم كان الموحدون ، وهؤلاء في عهدهم اضمحل سلطان المسلمين في بلاد الأندلس اضمحلالا واضحا ، وسقطت كثير من بلاد المسلمين ، في أيدي النصارى الأسبان ، مما اضطر كثير من أهل العلم والأدب والفكر من الأندلسيين الى الهجرة الى بلاد المغرب ومصر والمشرق (2) . وقد فتحت مصر أبوابها لهؤلاء العلماء فعاشوا فيها يتمتعون بكافة حقوق المواطنة التي يتمتع بها المصريون ، وتجاوب هؤلاء العلماء — على النحو الذى رأيناه مع الحياة في المجتمع المصري ، وأصبحت لهم مكانتهم العلمية والاجتماعية بين اخوانهم من المصريين .

د. محمد عيسى الحريرى
أستاذ مساعد التاريخ الاسلامى والحضارة
كلية الآداب — جامعة المنصورة

1 — بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 123 .
2 — المرجع السابق ، ص 125 ، 126 .